

حياة محمد

باعتباره صاحب الدعوة الإسلامية

للمستشرق الإنجليزى توماس أرنولد

ترجمة الأستاذة

عبد الفتاح السمرجارى

عبد العزيز عبد الميمى^(١)

—

ويعتبر إسلام عمر قاتحة عصر جديد في تاريخ الإسلام ،
إذ استطاع أتباع الرسول حينئذ أن يجهروا بمقيدتهم . ترك محمد
(ص) بيت الأرقم ، وأقام المؤمنون صلواتهم جماعة وإعلاناً حول
الكعبة . وبدأ أشراف مكة يتوجسون خيفة من هذه الحال
الجديدة ، لأنهم لم يعودوا بعد يناضلون عصاية من الخارجين
المضطهدين النبوذيين الذين كانوا يدافعون عن حياة بأئسة مستضعفة
وإنما يناضلون طائفة أصبحت ذات بأس . تزداد قوتها يوماً بعد
يوم بانضمام بعض ذوى السلطان من أهل القبائل ، وتهدد كيان
الحكومة القائمة ، بالمهادنة مع أمير قوى من قبيلة أخرى

لهذا أجمعت قريش أمرها أن تدبر محاولة ناجمة لتمرقل نحو
تلك الحركة الجديدة في مدينتها . تماقد أهل قريش على مقاطعة
بنى هاشم الذين حموا الرسول لما له بهم من صلة القرابة ، واتفقوا
على ألا يتكبحوا إليهم ، ولا يتكبحهم ، ولا يبيعهم شيئاً ،
ولا يتعاضوا منهم ، ولا تكون بين القبيلتين معاملة أيا كان نوعها .
ويقال إن بنى هاشم استمروا مدة ثلاث سنوات لا يتأدرون ناحية
معينة من مكة ، اللهم إلا خلال الأشهر الحرم التي تمتنع فيها الحروب
في كل الجزيرة ، والتي تماهد العرب من قبل على الأمن فيها حتى
يقف الحجاج لزيارة الكعبة الشريفة مراكز دينهم العام

انتهز محمد (ص) الفرص في أيام الحج ليدعو إلى الإسلام
بين القبائل المختلفة التي كانت تند أفواجا إلى مكة وإلى الأسواق
الجاورة لها . ولكن الرسول لم يوفق لأن عمه أبا لهب كان يقتنى
أثره صامحاً بأعلى صوته : « إنه مشعوذ يريد أن يصرفكم عن دين

(١) أنظر الجعد ٢٩٦

آبائكم إلى العقائد الكاذبة التي جاء بها فتحاووه ولا تسمعوا له .
فكان الحجاج يميرون الرسول ويجهلونهم بقولهم : « إن أهلك
أنفسهم وأقاربك أحق الناس بمعرفتك ، فلم لا يصدقونك إذا
ويتبعونك ؟ » . وأخيراً استفز كل هذا الاضطهاد الذى لحق
بمحمد وأتباعه عاطفة جماعات كثيرة من قريش ، فنقضوا عهد
المقاطعة .

وفي هذا العام غمر محمد أشد الحزن والجزع لفقد خديجة
زوجه الأمين التي كانت له مشيراً ونصيراً مدة خمس وعشرين سنة .
وبعد وفاة خديجة بمدة مات أبو طالب غرم الرسول (ص) بموته
أقوى حام له ، وأثبت مدافع عنه . وبذلك أصبح الرسول صرة
أخرى موضع استهزاء الأعداء به ، واحتقارهم له . قامى محمد (ص)
سخرية عشيرته به ، وإعراضهم عنه ، وفشلاً في رسالته التي ظل
يلفها إليهم مدة عشر سنوات ، فصمم على أن يبحث عن عشائر
أخرى لملها تكون أكثر استعداداً لباع دعوته ، وعن أرض
أخرى خصبة قد تنمو فيها بذور عقيدته ، فخرج مصحوباً بذلك
الأمل إلى الطائف ، وهو مكان يبعد سبعين ميلاً عن مكة . وهناك
أمام جماعة من رؤساء القرية أوضح محمد (ص) دينه المتضمن
وحدة الله ، والرسالة التي بعث بها رسولاً للناس ، وتوسل إليهم
في الوقت نفسه أن يحموه ممن اضطهده في مكة . رأى أهل الطائف
ألا توافق بين دعوة محمد الطموحة (التي كانت إذ ذاك أسمى من
أن يدركها المشركون مثلهم) وبين حال الضعف وقلة الأنصار
التي كان فيها ، فذهبوا يحرقونه ويسخرون به بذورهم بالحجارة
في غير شفقة ، ثم طردوه من ديارهم

غادر محمد الطائف ، وقد ظهرت بوادر النجاح أضف ما تكون ،
فتنفس الصعداء بالعبارة التي تضمنتها الآيات الكريمة التي صدرت
على لسان نوح عليه السلام : « قال رب إني دعوت قومي ليلاً
ونهاراً ، فلم يزدمني دعائى إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم
جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا
استكباراً » .

كانت عادة محمد (ص) خلال موسم الحج السنوى أن يذهب
إلى منازل القبائل العربية المختلفة ، ويتحدث إليهم عن الإسلام ،
فكان بعضهم يقابل دعوته بالبقاء ، وآخرون يعرضون عنه

العدد اكتسبوا السلطان من رؤساء اليهود شيئاً فشيئاً ، حتى نجسوا أخيراً ، حوائى منتهى القرن الخامس الميلادى فى احتجاب كل السلطان على يثرب

اعتنق بعض العرب اليهودية وظل كثير من رؤساء يثرب اليهود مقيمين بها ، تحت سلطان العرب الغزاة . من أجل هذا نجد عدداً كبيراً من اليهود من ساكنى يثرب ، فى العصر الذى ظهر فيه محمد صلى الله عليه وسلم . كان سكان يثرب لذلك على علم بأمر (المنفذ) الذى توقعوا قدومه ، ونتيجة ذلك أنهم كانوا أكثر قدرة على فهم ما يقول محمد — وهو أنه رسول — وقبوله من أهل مكة الوثنيين الذين كانت فكرة الإسلام لهم غير مألوقة ، كما كانت منبوذة من القرشيين خاصة ، لأن سلطانهم على القبائل الأخرى ، وغنائم المصادى ما كانوا إلا لأنهم السدنة الورثة لجمهرة أصنام العرب التى نصبوها فى حرم الكعبة

يضاف إلى هذا أن يثرب كانت مشتتة النظام لما حل بها من النزاع الداخلى الذى أشعل ناره شتان قديم بين الأوس والخزرج . كان السكان دائماً فى اضطراب وقلق ، ولهذا اعتبروا أى عمل يؤدي إلى ائتلاف القبيلتين الشخصيتين قال خير وبشرى لدينتهم لقد حدث فى القرون الوسطى أن اختار سكان الجمهوريات الشمالية لإيطاليا أجنياً ليكون الحاكم الأعلى على جميع مدنها ، حتى يحتفظوا بالتوازن بين قوات الأحزاب المتنافسة ، وحتى يتفادوا — بقدر المستطاع — الخصومات الداخلية التى كانت قاضية على التجارة ، والأمن العام . وشبهه بهذا ما وقع من أهل يثرب ، فإنهم لم ينظروا إلى ظهور أجني بينهم بعين التهمة ، حتى حين أدركوا أنه ربما يستغل ما كانوا فيه من انحلال ليكتسب لنفسه سلطاناً عليهم .

إن الواقع ليثبت عكس ما كان يظن ، إذ يظهر أن أحد الأسباب التى جعلت أهل المدينة يرجون بمحمد (ص) ترحيباً محموداً هو أن العقلاء والمتفنيين من السكان قد تبينوا أن اعتناق الإسلام هو العلاج الوحيد للاضطراب الداخلى الذى عانوه مدة من الزمن ، لما جاء به الإسلام من نظم المعاش القويمة ، ومن إخضاع الشهوات الإنسانية الجامحة لتهديب القوانين الوحي بها من سلطة أعلى وأسمى من سلطة البشر الثقلبة (١) .

(١) تاريخ قبطانى . الجزء الأول صفحة ٢٢٤ — ٢٢٥

ساخرين ، ولكن غزاه جاء إليه من حيث لم يتوقع . ذلك أنه قبل شروعة من من نمرأ سبع ، وعرب أنهم قدسرا من الأريثة أو يثرب كما كانت تسمى حينئذ ، نالهم قاتلاً : « من أنتم ؟ » قالوا : « نفر من الخزرج » . قال : « أمن موالى اليهود ؟ » . قالوا : « نعم » . قال : « أفلا تجلسون أحكمكم ؟ » . قالوا : « بلى » . جلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، ونلا عليهم القرآن . وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام أن يهوداً كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد عزوهم (١) يبلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : « إن نبياً مبيناً ، الآن ، قد أظلم زمانه ، تبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم » . فلما كلم رسول الله (ص) أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : « يا قوم ، تعلموا والله إنه للنبي الذى توعدكم به يهود (٢) فلا تسبقنكم إليه » . فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا له : « إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من المداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فنسندهم عليهم فنندعوهم إلى أمرك ، ونمرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك » . ثم انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا (٣)

هذا هو الخبر المأثور لهذه الحادثة التى تعتبر فجر يوم جديد للدعوة المحمدية . فلقد لاقى محمد قوماً مستعدين لقبول تعاليمه ، قوماً كانت أحوالهم الاجتماعية حينئذ ممهدة لدعوته ، كما سيتضح ذلك فيما بعد

كانت يثرب إذ ذاك مسكونة باليهود منذ زمن طويل ، ويغلب على الظن أنهم أخرجوا من ديارهم على يد الأمبراطور أدريان (٤) الذى اضطهدهم [فاستقروا فى مكان يثرب] . ولما وصل بطنا الأوس والخزرج من العرب — فى إحدى انتجاعاتهم للمرعى — إلى يثرب ، سمح لهم اليهود بالإقامة فيها . وبنمو النسل وتكاثر

(١) عزوم : غلبوم وقهروم

(٢) يضى قوم يهود

(٣) ابن اسحاق صفحة ٢٨٦ — ٢٨٧

(٤) هو الأمبراطور أدريان الرومانى الذى حكم من سنة ١١٧ م

التي غرست فيهم من قبل ، حتى تؤتى أكلها طيبة
كان منزل^(١) مصعب على أسعد بن زرارة ، وكان يجمع معتقي
الإسلام إليه للصلاة وقراءة القرآن . يفعل ذلك أحياناً في دار
مصعب وأحياناً في دار بني ظفر ، وكانت في ناحية من المدينة
يقطنها بطن بني عبد الأشهل وبطن بني ظفر .

كان رؤساء بني الأشهل سعد بن معاذ وأسيد بن خضير .
وبينما كان مصعب جالساً ذات يوم مع أسعد في دار بني ظفر يعلم
طائفة من حديثي العهد بالإسلام . إذ وفد سعد بن معاذ ، وكان
يبحث عن مكانهم فقال لأسيد بن خضير : « إنطلق إلى هذين
الرجلين اللذين قد أتيا ديارنا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وأنههما
عن أن يأتيا ديارنا فإنه لولا أن أسعد بن زرارة من حيث قد علمت
كفيتك ذلك لأنه كان ابن خالة أسعد . فأخذ سيد بن خضير
حريته ثم أقبل على أسعد ومصعب حتى وقف عليهما متشهما وقال
« ماذا تفعلان ؟ تسفهان ضعفاءنا ؟ إعتزلانا إن كانت لكتابنا نفسكا
حاجة » . قال له مصعب : « وتجلس قسمع ، فإن رضيت أمراً
قبلته ، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره » فركز أسيد حريته
وجلس إليهما ليسمع ، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن .
وبعد هنية صاح أسيد متهلاً وقال : « كيف تصنعون إذا أردتم أن
تدخلوا في هذا الدين ؟ » فأجاب مصعب : « تنفسل فَتَطْهَرُ ،
وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فقام أسيد وفعل ذلك ،
وكرر الشهادة . ثم قال : « إن ورأى رجلاً (يعني سعد بن معاذ)
إن أتبعك لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليك الآن » .
وبعد هذه العبارة انصرف أسيد ، وجاء بعده توأ أسعد بن معاذ
بنفسه غاضباً حاتقاً على أسعد لما منحه مبشرى الإسلام من رعاية .
فتوسل إليه مصعب ألا يحقرن الدين قبل أن يسمعه . فقبل سعد أن
يستمع ، ولم يلبث غير قليل حتى تأثر بما قاله مصعب من العبارات
التي أدخلت في قلبه الإيمان فاعتنق الدين وأصبح مسلماً . عاد سعد
إلى قومه يلتهب حماساً ، وقال لهم : « يا بني عبد الأشهل ، كيف
تعملون أمري فيكم ؟ » فقالوا : « سيدنا وأفضلنا رأياً ، وأيمننا
نقياً » قال : « فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا
بالله ورسوله محمد » . ومن ذلك اليوم لم يبق في دار بني عبد الأشهل
رجل أو امرأة إلا مسلماً أو مسلمة .

عبد العزيز عبد المحيبي

(١) أي نزوله

وتوضح لنا هذه الحقائق كيف استطاع محمد — بعد ثمانية
أعوام من الهجرة — أن يرأس جيشاً من أتباعه تبلغ عدته عشرة
آلاف نفر ، وأن يدخل المدينة التي جاهد فيها من قبل لينشر
دعوته مدة عشر سنين فلم يفلح إلا قليلاً .

لقد تعجلت الحوادث فيما ذكرت الآن . فلنعد إلى بدء عرض
محمد نفسه على أهل الخزرج الذين دخلوا في الإسلام أن يصحبهم
بنفسه إلى يثرب ، ولكنهم رغبوا إليه في أن يمدل عن ذلك حتى
يحدث صلح بينهم وبين بني الأوس . وقالوا : « إننا نتضرع
إليك أن تدعنا نعود إلى قومنا لعل الله يخلق السلم بيننا فنرجع
إليك بعد ذلك . وموعداً موسم الحج القادم » .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ودعاهم إلى الإسلام ، واستجاب منهم نفر كثير فلم
تبق دار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم . حتى إذا
كان العام المقبل وافى الموسم طائفة من يثرب — عشرة من بني
الخزرج واثنتان من بني الأوس — فلقوه في المكان المسمى ،
وبابهم أن يتبعوا تعاليمه . وهذه هي البيعة الأولى المعروفة ببيعة
المقبة ، وسميت بذلك لأنهم اجتمعوا سرآ في مكان خفي . وقد
أخذوا على أنفسهم « ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ولا نزن
ولا تقتل أولادنا ، ولا نأتي بهتاناً نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا
ولا نعصيه في معروف » . رجع هؤلاء الإثنا عشرة رجلاً بعد
ذلك إلى يثرب مبشرين بالإسلام ، وبذلك مهد السبيل للدين
الجديد ، وأقبلوا على نشر الدعوة بحماس ورغبة ، حتى انتشر الإسلام
سريعاً من بيت لبيت ، ومن قبيلة لقبيلة .

وقد صحبهم في عودتهم إلى يثرب مصعب^(١) بن عمير . ويقال
في رواية أخرى إن الرسول بعثه إلى أهل يثرب بعد أن كتبوا
إليه بذلك . كان ذلك الشاب الناشئ أحد معتقي الإسلام
الأوائل . وكان قد رجع حديثاً من الحبشة ، بعد أن حنكته
التجارب هناك ، وأنضجت التنشئة القاسية في ميدان الاضطهاد
حماسه ، وعلمته كيف يقابل الاضطهاد ، وكيف يناضل أولئك
الذين كانوا متوثبين للحط من شأن الإسلام من غير أن يعلموا
شيئاً من تعاليمه الصحيحة . لذلك استطاع محمد (ص) أن يمهّد
إليه واقعاً القيام بذلك الواجب المسير ، واجب إرشاد حديثي العهد
بالإسلام وتعليمهم ، وتنمية بذور الحماس والإخلاص الديني ،

(١) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف